هَـــدْرُ الـــطفـــولـــة

قراءة في نصوص الروائي عبد العزيز بركة ساكن [1]

د. لمياء شمت [2]

تطل الطفولة عبر نصوص القاص والروائي عبد العزيز بركة ساكن وهي تتنكب أقدار مغلقة شائكة، وترتكس بلا آخر في شقوة مريرة وانكسارات مستمرة. فما أن ندلف إلى النص السردي لبركة ساكن حتى نرى ملء الحواس أبناء الحياة الصغار وهم يصارعون الفقر الجارح والظروف المستحيلة، والأقدار الكالحة، بل ويستجدون الحياة التي تدير لهم ظهرها في عماء عن بؤسهم، وفي صمم عن ضراعاتهم الملحة، وفي حرز منيع عن أحلامهم البسيطة بأقل ممكنات النجاة ومؤن العيش الكريم. فنراهم هناك بين طيات السرد وهم يلوذون باللعب لخلق عالم موازي أقل شقاء وقسوة. لكن الواقع الفظ المبهظ يظل يهتك أسوار عوالمهم وينفذ إلى أهازيجهم ليحولها إلى ألعاب حرب أيسر مفرداتها الرصاص والهتك والقتل. أو يقتات بأوجاعهم مثل ما حدث لذلك الصغير منتصر الذي

---

(1) نشر المقال في كتاب «تأملات وشهادات» - لمياء شمت- دار مدارك للطباعة والنشر - 2011.

(2) ناقدة وأكاديمية سودانية متخصصة في اللغة الانجليزية وتعمل بالجامعات السعودية.

ظل يستجدي حقه في بعض هدنة على صدر أمه الكادحة في قمطرير بؤسها اليومي، وهو لا يملك غير إصدار (صرخات متقطعة مخنوقة تثير الشفقة في قلب أقسى شرطي في العالم الثالث).

ونصادف أيضاً أخته كلتوم الصغيرة وهي تتجرع من الأسى والهلع ما يفوق الاحتمال، (لو قسمنا هذا الحزن والبؤس على كل مشردي العالم لما وسعوه). ولا بد لنا أن نطل ولو لبرهة على آمنة ومعاوية وأبوذر أبناء زهرة زوجة الشهيد سماعين، وفخ الفقر يستدرجهم إلى مصائر معتمة، ومزالق محدقة أيسرها هجر الدراسة للعمل على كارو، أو الانخراط في العسكرية لدرء عصف البؤس الضاري.

وهكذا يمضي بركة ساكن مُسخّراً خبرات الطفولة وذاكرتها، وزاوية نظرها للوجود لإبداع نصوص واسعة مكشوفة الأسقف، مفتوحة على الحياة لتمنح ذاتها بسهولة لوجدان القارئ، وتسوقه ليغوص في أكثر الهواجس إنسانية وحميمية حيث عسار الحياة وعثراتها مرتسمة على ملامح أطفال المجتمعات الفقيرة الكادحة، وتفرج له كوة ليعاين المجتمع من زواياه السفلى وقاعه الحي الهادر، حيث (الفقر المدقع الأملس ثروة سخية في دهشة.. حيث كل شيء طازجاً وبسيطاً ونقياً)، كما هي كلمات بركة ساكن في توصيفه لتلك العوالم. حيث تنهض الأسر على كتوف الأمهات. (الفقيرات.. الغنيات.. البسيطات.. الوفيات.. الفارهات.. العظيمات).

ومن جهة أخرى فإن تدبر النصوص يكشف كذلك عن شغف الكاتب بتفقد المكان وتأسيسه كرحم حاضن لانشعاب الحدث، وإفراغ الحكايا

بعوالمها وشخوصها. فلكأن ساكن لا يرضى بأقل من نحت ملامح المكان بقوة في ذهن القارئ متوفراً على طاقة كبيرة للتصوير المشهدي الحي الرازم، الذي يملك أن يعرج بالقارئ إلى ما وراء المكان ليرى الواقع الحياتي اليومي والنفسي للمنسيين على قارعة الحياة، ويعايشهم وهم يعاركون الدنيا ويقارعون أقدارها.

وهكذا يستمر الروائي في مراكمة المؤثرات البصرية التي تُعين كثيراً على الغوص داخل العوالم الداخلية للشخوص في بيئاتها المختلفة، مؤسساً للحظة سردية مُركّزة ينطلق منها إلى الوراء أو الأمام الزمني، نافذاً إلى العمق عبر نصوص مكتوبة داخل عصب الحياة ونسيجها النابض الحي، لتجوس في المخاوف والهواجس والأوجاع بسرد إسترجاعي يسترفد من الذاكرة، أو أحياناً إستباقي تنبؤي حافل بالممكنات التي تتخلق ببطء في الآتي.

وعلى سبيل المثال ففي نص شلولو (طقس الذنب) يتجلى المكان الريفي القصي، حيث ينطلق الحدث من داخل صريف القصب ليمضي السارد في رسم ملامح المكان بأشجاره وحجاره وشعابه وكائناته التي تتماهى وتتناسج مع خلفية الأحداث وطبيعة العلاقات السردية، حيث الطقوس القبلية البدائية بتعاويذها وطواطمها وأسبارها. لنرى من خلالها الطفل الصغير النزق وهو يخضع لطقسيات معقدة لإثبات نسبه لأبيه، مما يستدعي للذاكرة تصوير شينوا شيبي لمجتمع الأيبو النيجيري بعراقته وغناه، وخصوصيته الثقافية.

أما في نص (باتريشيا وطفلان) فتطل القضارف كمكان يجسد التنوع الأثني الخلاق، داخل كل حيوي متماسك. لنمضي عبر تواتر القص لنشهد الاحتكاك الحضاري السوي بين الهويات والأخلاط الثقافية المختلفة، بطبيعته المنفتحة المتعافية من هواجس الحذر والاسترابة.

والجدير بالملاحظة هنا أن الأطفال يحضرون في معظم النصوص بفطرتهم الخام، ممثلين بذلك المقدرة التلقائية على تصويب الخلل القائم في العلاقات الإنسانية من حولهم، وإعادتها إلى سويتها بعيداً عن الفصامات المجتمعية المستفحلة.

فها نحن، ومن زوايا حي صغير بقشلاق السجون، نصغي لطفلين يافعين وهما يعاينان الوجود وأشياءه من حولهما، ويرصدان كل صوت وحركة وإيماءة، ويخضعان كل ما تقع عليه حواسهما، ومجساتهما الطفولية لتفسيراتهما الطفولية الخاصة، وزاوية نظرهما المختلفة. فنراهما وهما يراقبان باتريشيا وزوجها سانسو، بعد أن تخيرا بحذر مواقع استراتيجية آمنة (قدة الكديس) و(خرم الجرو) ليتابعا من هناك المعركة المحتدمة بين الزوجين. ثم تغمرهما الدهشة الطازجة برؤية باتريشيا وهي تنخرط في رقص الجالو بجمال طاغ، بل وتلح عليهما في مشاركتها الرقص الرشيق ما يثير ريبتهما، ويولد لديهما إحساساً غامضاً بالخطر، خاصة عند عطا المنان، الذي لا يتوانى عن الهرب في اللحظة المناسبة مستخدماً أجهزة إنذاره المبكر.

أما الشقيق الآخر فهو غالباً ما يبدو أكثر هدوءاً واستغراقاً، وأكثر نزوعاً للتأمل واقتراف المغامرات. فهو لا يتهيب الإفصاح عن إعجابه بجمال

باتريشيا وطولها الفارع (لا أدري كم يرتفع رأسها عن سطح البحر!)، بل يمضي ليتابع مدنفاً نفحة رائحة جسدها وهو (يتشمم الهواء مثل جرو صغير يبحث عن الاتجاه الذي ذهبت إليه أمه)، معلناً بلا وجل رغبته في الزواج من تلك الفاتنة السمراء مستقبلاً.

ويحلينا ذلك من فورنا إلى (دمزوقة) أحمد الطيب زين العابدين من حيث خصوصية البيئة وموجوداتها، وواقعها السحري. فدمزوقة بطبيعتها المتجاوزة قد كانت من أجمل نساء القبيلة، متسقة كعود العنكوليب، ذات بشرة سمراء روية دهينة تتلامع كحبة زيتون، فتعلق بها الأطفال وظلوا يرافقونها، ويتحلقون حولها بمحبة عظيمة، حتى ابنها التوم عندما جاءه الدور في اللعب، ووقف عنده السؤال (عروستك ياتا؟) لم يجد إلا أن (يدخل أصابع يده اليمنى كلها في فمه، وجعل يردد عروسي؟ عروسي.. وأخيراً استقر رأيه فقالها في تشكك عروستي دم زوقا، فضجَّ الجميع بالضحك)، وعندها تهُب أمه مدافعة (فتش ما لقى أسمح من أمه). وكذلك هو حال الطفل في (باتريشيا وطفلان) حيث الزواج في أذهان الصغار ليس أكثر من مرافقة دائمة واستئثار بالمحبة.

أما في نص (محاربة قديمة تحسم المعركة وحدها) فيجدر بنا أن نقف أولاً عند ملاحظة الناقد عصام أبو القاسم بأن السرد ينهض بنيوياً على المكان، تحديداً المكان المتقاطب داخل/ خارج، والذي يشحذ بدوره الطاقة الدرامية للنص، ويغذى حالة الترقب عند القارئ.

وهكذا فإن الحكي ينتظم بروية لنرى الطفلة انتصار بيدها الواحدة وهي

تتصدى (للبوم).. (ناس الحرب)، لا تكاد طفولتها الغضة تميز الفرق بين حرب شرسة هادمة للحياة، أخذت ذراعها دون أدنى رحمة، وبين لعبة الحرب التي تكررها مع أبناء الجيران في محاكاة لواقع مبهظ تخوض فيه طفولتهم الخضراء وسط لجج من القنابل والألغام والجرحى والقتلى والأشلاء.

وبشفافية بصرية مستدقة يأخذنا ساكن في نص (طائر أسد وجحوش) إلى فصل دراسي صغير في مدرسة ما، حيث التلاميذ الصغار (مبللين بالزيت وعلى أعناقهم تتدلى التمائم)، وهم على ذلك الحال بالكاد يدركون معنى نظم الدراسة وأعرافها. وبلغة صافية بسيطة، مسكوبة بحس متفكه نرى الصغار وهم يبرعون في الهرج ويتنافسون في التصايح (غابة من الحناجر تزأر في فوضوية). ثم يزداد الطين بلة بدخول طائر إلى الفصل، حيث يتحول المشهد داخل الفصل إلى مضمار صيد مائج بالحابل والنابل، يتراكل فيه الصغار ويتسلقون الأدراج والأكتاف، ويقذفون بعضهم بالكتب والكراسات، بل ويتشعلقون في أعمدة السقف لقنص الطائر كغنيمة صيد ثمينة قد لا يرون فيها أكثر من لقيمات دهينة تسد الرمق. تماماً كطائر بشرى الفاضل في نص (اللقمة).

ومن حيث لا ندري ينقلنا الوصف الحركي متصاعد الدينامية إلى مشهد الاحتفال باستشهاد سماعين كوكو في نص سردي آخر. حيث (تحجب سحابات غباره الرؤية، ويكح لها الصغار والحملان والكتاكيت)، وينطط الجميع وسط ذهول أسرة سماعين المكلومة، خاصة زوجته زهرة التي تقع

على عاتقها مسئولية ثلاثة أطفال لا تعرف كيف تقوم على أمرهم، وهي لا تكاد تملك ما تكلأهم به ليوم واحد. مما يقودها لحيرة شاقة، وذهول عظيم أعلن عن نفسه في (كعكة الملائكة) الضخمة، التي احتاجت بدورها لتفكيك طويل ومعقد لإخراج كل أثاث ومؤنة البيت منها. ثم يزداد الأمر درامية بموت زهرة الفاجع تاركة صغارها لثالوث الفقر واليتم والخطر.

هكذا يتجول بنا بركة ساكن في تضاريس شقوة مجتمعات الفقراء بتفاصيل صريحة لا تعرف مواربات اللغة ولا دثارات المجاز، ولا يمر فيها القص عبر أي وسيط رمزي، بل هي كما أراد لها الكاتب (واقعية مفرطة خالية من الرمز) تصل إلى حد الفضح والتعرية وشق الحجب، وكشف المستور. وتتعرى فيها اللغة كاشفة عما تختزنه من طاقة تأثيرية عالية، وكثافة نفسية وعاطفية هائلة، عبر صياغات ومفردات واسعة الطيف الدلالي، قادرة على إنتاج المعاني القصوى برصيدها التعبيري والتأثيري والانفعالي الذي ينبجس حاراً من عروق الحياة. وتتخللها دلالات الأسماء التي هي عند ساكن غير اعتباطية وغير محايدة (فهي نشيطة تفعل وتؤثر وتوجه، (وتتجه بميتافيزيقية لئيمة نحو أصواتها ومعانيها).